سمو الإسلام

حقيقة العدل ومفاهيمه فى الاسلام

الأستاذ الدكتور كفيل أحمد القاسمى
قسم اللغة العربية وآدابها
بجامعة عليكره الاسلامية

معنى العدل لغة:

"العدل" ضد الجور وما قام فى النفوس أنه مستقيم كالعدالة والعُدولة والمِعْدلة والمَعْدلة، عدل يعدِل فهو عادل من عدول وعدل بلفظ الواحد وهذا اسم للجمع، رجل عدلٌ وإمراة عدلٌ وعدلةٌ وعّدل الحكم تعديلا اقامه وفلانا زكاه والميزان سوّاه والعَدَلة محركةً كهُمَزة المزكّون أو كهُمَزة للواحد وبالتحريك للجمع، وعدله يعدِله وعادله وازنه وفى المحمِل ركِبَ معه والعدْل المثل والنظير، كالعِدل والعديل جمع اعدال وعُدلاء، والكيلُ والجزاء والفريضة والنافلة والفداء والسوية والاستقامة وبلا لام رجل ولى شرطة تُبّع فاذا أريد قتلُ رجل دُفع اليه فقيل لكل ما يئس منه وُضع على يدى عدل، وبالكسر نصف الحِمل جمع اعدال وعُدول، وعديلك معادلك وشرب حتى عدّل صار بطنه كالعدل والاعتدال توسط حال بين حالين فى كمّ أو كيف وكل ما تناسب فقد اعتدل وكل ما اقته فقد عدلته وعدّلته وعدل عنه يعدل عدلا وعدولا حاد واليه عُدولا رجع، والطريق مال، والفحل ترك الضراب والجمال، الفحل نحاه، وفلانا بفلان سوّى بينهما، وما له معدلٌ ولا معدول مصرفٌ، وانعدل عنه وعادل اعوجّ، والعدال كالكتاب أن يعرض أمران فلا تدرى لأيهما تصير فأنت تروى فى ذلك وعدولى بالبحرين والشجرة القديمة الطويلة والعدولية سفن منسوبة اليها أو الى عدول رجل يتخذ السفن أو الى قوم كانوا ينزلون هجَر والعدولى جمعها والملاح والعُديل كزُبير ابن الفرخ شاعر ومعدِلُ ابن احد كمجلس محدث، والمعُدّلات كمعظّمات زوايا البيت وهو يعادل هذا الأمر اذا ارتبك فيه ولم يُمضه والعَدل محرّكة تسوية العِدلين" كذا فى القاموس المحيط،

http://www.aljamiatussalafiah.org

ولسان العرب وأقرب الموارد. (١)

مفهوم العدل وتقسيمه:

والمفهوم من هذه الكلمة فى أيامنا اعادة الحق السليب الى أصحابه، ورفع الظلم والارهاب والطغيان وتحقيق المساواة، وفى الفرنسية تستعمل كلمة Justice بالمقابلة للعدل أو العدالة وهى لاتينية الأصل Justica ، ويروى عن موليير انه كان يقول: "ان العدل معى ولكنى اخسر دعواى أمام القاضى، للتدليل على ان أحكام القضاة لا تكون دائما عادلة، وجاء فى الحديث: "القضاة ثلاثة: إثنان فى النار وواحد فى الجنة" (سنن أبى داود ٣ / ٢٩٩ ح ٣٥٧٣) اشارة الى أن أحكام أكثر القضاة ليست دائما عادلة، وقد قسم القدماء العدل الى قسمين: عدل الهى، وعدل بشري.

(الف) العدل الالهى هو الأقدم والأهم ومنصوص عليه فى الكتب الدينية وكان للعدل الالهى من الأثر الفعال فى تهذيب النفوس، ولجم الشهوات ورد الحقوق السليبة إلى أصحابها، والأديان السماوية كلها أوصت بتحقيق العدالة، فالمسيحيون الأولون عاشوا فى ظل هذه العدالة مئات السنين وطبقوا الوصية الالهية القائلة "بعرق جبينك تأكل خبزك" تطبيقا صحيحا، وكان الغنى منهم يكفل قوت الفقراء وأصحاب الحاجة، "وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول ان شيئا من أمواله له بل كان عندهم كل شئ مشتركا ...." (٢).

والمسلمون فى العهد النبوى وفى عهد الخلفاء الراشدين جعلوا العدالة شعارهم الأسمى وأساس المجتمع الذى أوجده ونشير الى هذا فيما بعد.

(ب) هذا كان شأن العدل الالهى والعدل البشرى يبقى بدون قيمة اذا لم يكن تدعمه قوة مادية تعمل على تنفيذه، فحيث لا قوة يكون العدل مجرد توصيات وتمنيات لا تفيد

---

(١) راجع القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادى ٣ / ١٣ – ١٤، مطبعة مصطفى البابى بمصر ١٩٥٢، ولسان العرب لابن منظور ١ / ٤٣٠ – ٤٣٧، دار صادر بيروت ١٩٥٦م وأقرب الموارد لسعيد الخورى الشرتونى ٢ / ٧٥٢.

(٢) سفر أعمال الرسل ص ٤، ٣٢٤ وما بعد وص ٥، ١٤ – ١١، نقلا عن العدالة الاجتماعية عند العرب.

أحداً، وقد أشار اليه عمر بن الخطاب.

"لا تكلم بحق لانفاذ له" (١) فالعدل هنا هو الاعتراف عمليا بحقوق الفرد واستجابة مطالبه باعطائه ما هو عائد له وخاص به من أشياء مادية وأمور معنوية، وقد اختلفت أنواع المكافأة والقصاص باختلاف الزمان والعادات وعقليات الشعوب، فالجريمة التى كان يعاقب عليها بالموت فى بعض الأمم، كان يفرض على مرتكبها السجن فى أمم أخرى، فالعدل هنا نسبى، ومظاهره تختلف باختلاف الشعوب، وهو باق هكذا الى يومنا هذا، وقد اصطلح على اتخاذ الميزان شعارا للعدل باعتباره يعطى الانسان ما يستحقه وما هو عائد اليه.

نشأة العدل:

يبدأ العدل فى مظهره البسيط بمعاملة الانسان نفسه، ففى عالم الحيوان حيث الغرائز تقوم مقام العقل فى التحكم بتصرفات الفرد، يستسلم الحيوان للعوامل الطبيعية فى حياته، يأكل عند ما يجوع، ويفتش عن غذائه فى الأماكن التى تعوّد الحياة فيها، ويرتاح بعد أن يملأ بطنه، أما الانسان فمنذ ان بدأ يعرف أهمية الادخار واكتناز المواد الغذائية والأموال، بدأ يجور على نفسه لتحصيل وجمع اكبر كمية ممكنة من هذه المواد والأموال، ونشأ عن ذلك أول نوع من الجور عرفه التاريخ.

"وقد حددت الشرائع القديمة العدل بانه الارادة فى اعطاء كل شخص حقوقه، وجاء ت الواجبات فى تلك الشرائع بشكل سلبي كالقول: "لا تقتل، لا تسرق" لكى يكون القصاص على مخالفتها بشكل ايجابي، ومما لا ريب فيه انه الى جانب اعتبار العدل فضيلة فان القدماء عدّوا الرحمة فضيلة أيضا، لأنها تأتى مكمّلة للعدل من بعض النواحى والانسان العادل هو الذى يحترم احتراما مطلقا وبدون تحفظ حياة رفاقه فى المجتمع وشرفهم وحرياتهم وحقوقهم المادية والمعنوية وقد اعتبرت الرحمة التى تستهدف عمل الخير بدون احترام حرية الانسان وكرامته ناقصة وفاسدة وفى غير محلها.

ولأن العدل يقضى باعطاء الانسان حقوقه فى الأشياء التي يمتلكها دون ما تدقيق فى

(١) منشور القضاء راجع البيان والتبيين للجاحظ تحقيق حسن الندوى ٢ / ٤٧ الطبعة الرابعة ١٩٥٦ م.

http://www.aljamiatussalafiah.org

كيفية حصوله عليها لمعرفة ما اذا كانت الوسائل التى اتبعها فى التملك شرعية أم لا، وهل هو يستحق امتلاك ما يدعى به أم انه توصل اليه بالغش والخديعة والجريمة، بدأ الظلم الاجتماعى يتكون على سطح الأرض، ذلك لأنه فى العهد العائلى السحيق فى القدم عند ما كان المرء يحصل حقوقه بقوة ساعده، كان الحق مرادفا للقوة، فمن كان قويا كان حقه محترما، اما عند ما انتقل الانسان الى الحياة القبيلية، ثم تكونت الشعوب من القبائل، تولى المجتمع تحديد الحقوق وتوزيعها على أصحابها، فجاء نظام المحاكم يفصل بين الناس المتخاصمين على شيء من الأشياء أو أمر من الأمور، والمحاكم فى العهد القديم كانت تقضى بالعرف والعادة، ومن هنا بدأت العدالة الاجتماعية تختفى من على وجه الأرض ليحل محلها الظلم والارهاب والطغيان. (١)

العدل الاسلامى:

يجدر بنا أن نوضح مفهوم العدل فى الاسلام، أولا يكون السوال: ما هو المقصود بالعدل فى الاسلام؟ ولا شك أن المقصود بالعدل فى الاسلام الاعتدال فى جميع الأمور، سواء كانت فى العبادة والأعمال والوجوبية الشرعية هى أهم الأمور التى يحث الاسلام على العدل والاعتدال فيها، وهذا بديهي، فانه ما من أمر من أمور المكلفين الا ويرتبط بالأوامر الالهية، فالعدل فى الاسلام هو اتباع ما أمر الله، والامتناع عن فعل ما نهى عنه الله، قال الله تعالى فى القرآن المجيد: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (٢) وهذا الأمر الالهى يشمل جميع أمور الانسان فى عبادته ومعاملاته ومعاشرته لغيره فى بيته وبيئته ومجتمعه والعالم الذى يعيش فيه.

العدالة الفردية:

من أول واجبات الفرد أن يكون منصفا مع نفسه، محافظا على سلامته فى حياته الدنيوية، مراعيا مصيره فى الآخرة، آخذا نصيبه من الدنيا بالوجه المعروف، ولكن الفرد

---

(١) راجع العدالة الاجتماعية عند العرب لابراهيم حداد، دار الثقافة بيروت .

(٢) القرآن الكريم سورة المائدة: ٥.

http://www.aljamiatussalafiah.org

مخلوق بفطرة حب الخير لذاته: "وانه لحب الخير لشديد" مفطور كذلك على حب ذريته والرغبة فى أن يورثهم نتاج كده، والمال الذى يدخره لهم ان هو الا عمل مختزن فى صورة مال، يؤثر به الرجل ذريته على متاعه الخاص فى حياته ولكن الاسلام يريد من ذلك الفرد أن يكون متشرعا فى جميع الأحوال متبعا لأوامر وتوجيهات ذى الجلال، غير متعرض لأى أحد من المخلوقات بالإضرار، كما صرّح النبى ﷺ بقوله: "لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام" (١) ان عدم الإضرار بالغير من صفات الكرامة والشرف ومن الآثار الفاضلة والأخلاق النبيلة التى تعطى الطمأنينة والسكون فى هذه الحياة، لأن من لم يكن مدينا لأى أحد بدين لا يفزع من شئ، وقد ذكر سيد قطب فى كتابه العدالة الاجتماعية فى الاسلام العدالة تقتضى أن يلبى النظام أشواق الفرد ويرضى ميوله – فى الحدود التى لا تضر الجماعة – جزاء ما بذل هذا الفرد من طاقته وجهده، وعرق جبينه، وكدح فكره وكد أعصابه. والعدل أكبر قواعد الاسلام. والعدالة الاجتماعية لا تكون دائما على حساب الفرد. فهى للفرد كما هى للجماعة، متى شئنا ان نسلك طريقا وسطا، ونحقق العدالة فى جميع صورها وأشكالها فى الحياة، وفضلا على هذا كله فان أحدا لا يجزم بأن تحطيم الحوافز الطبيعية المعقولة ينتج خيرا للفرد أو للجماعة ، وسوء الظن بالفطرة هو الذى يعين طريقا واحدا للعدالة، بتحطيم هذه الحوافز والوقوف فى وجهها، كما ان النظريات الخيالية التى لا تعترف بالواقع، هى التى تفترض ان هذه الحوافز يمكن القضاء عليها من الخارج بالنظم والتشريعات فى جيل أو عدة أجيال، والاسلام لا يسوء ظنه بالفطرة الى هذا الحد، كما انه لا يعمد الى اقامة بنيانه على الخيال، متجاهلا كل الواقع العميق، كذلك يمكن القول بأن احترام الانسانية يقتضى ان ننظر اليها نظرة أعمق وأكثر إدراكا لعمق طبيعتها وأصالة فطرتها، تأصل جذورها، فنكون أكثر تعقلا، وأشد تحرجا، وأدق تفكيرا فى محاولة توجيهها، واقامة نظمها، فدلائل ملايين السنين التى عاشتها البشرية لا يجوز أن تذهب سدى، لنفترض نظريات عن ميولها وفطرتها

(١) الحديث متواتر فى كتب الأحاديث.

http://www.aljamiatussalafiah.org

وسلوكها، ثم نطبق هذه النظريات غصبا وقسرا. (١)

المرء العادل محبوب عند الله وعند الناس، يتفقده المجتمع ويحن عليه من عرفه لاتصافه بالصفات الحميدة وكونه قدوة حسنة، ومثال الايمان، وهو بعكس غير العادل. "العادل بناء المجتمع الآمن والمجتمع المؤمن المتحضر، وغير العادل هدام لا واصر الحياة". (٢)

ولا شك أن الانسان فى هذا العالم وفى هذه الحياة مختار غير مجبور، فى جميع أموره فمن اتبع طريق الحق والصواب نال ما لذّ وطاب، ومن خالف طريق الخير، خسر الفلاح وراد فى العثور فقد قال الله تعالى فى كتابه المجيد والفرقان الحميد ﴿من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من خلاق﴾ (٣) وقد ورد فى موضع آخر ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم، أولئك هم الخاسرون﴾ (٤) فهذه الآيات تدل على ان الانسان مراقب فى حياته فى جميع تصرفاته، منذ سنى تكليفه حتى نهاية عمره، فان عمل خيرا فلنفسها وان أساء فلها، فالفرد اذن يجب أن يكون عادلا مع نفسه قبل كل شئ، فانه محاط بكل شئ وارتباطه بما حوله، فى الكون الذى يعيش فيه، هو سبب سعادته وشقائه.

(يتبع)

☆☆☆

(١) راجع العدالة الاجتماعية فى الاسلام لسيد قطب ص ١١٣ – ١١٤، طبع القاهرة.

(٢) راجع الذريعة الى مكارم الشريعة لراغب الأصفهاني.

(٣) سورة الشورى: ٢٠.

(٤) سورة الأنفال: ٣٧.

http://www.aljamiatussalafiah.org